

المبدأ الذرائعي والممارسة التداولية

أ. نفيسة بن يخلف

طالبة دكتوراه

إشراف: الأستاذ ناصر اسطمبول

جامعة أحمد بن بلة 01، وهران، الجزائر

nafissasemiotics@gmail.com

ملخص:

سنحاول في هذا المقال عرض بعض المعالم الأساسية التي ينهض عليها المبدأ التداولي عند تشارلز ساندرس بيرس؛ إذ ليست الذرائعية في تصوره رؤية للعالم يتم عبرها اختزال الفكر في الفعل أو في النتائج العملية بل تعد منهجية تجريبية وواقعية، تهدف إلى بلوغ مرتبة شبه مثالية تجمع بين الفطرة والشعور والعقل، وتؤكد وجود علاقات تربط بين الذرائعية وعلوم معيارية كالمنطق وعلمي الأخلاق والجمال.

الكلمات المفتاحية:

الذرائعية، التداولية، الصدق، الحدس، الفكر، الاستدلال، السيميائيات، العلامات، البحث.

Résumé:

Dans cet article nous nous proposons de formuler quelques repères généraux sur la maxime pragmatiste de C.S. Peirce.

Le pragmatisme peircien n'est pas une vision du monde qui réduit la pensée, à l'action, à l'utile, c'est une méthode expérimentale et réaliste, visant un idéal dans lequel s'équilibrent instinct, sentiment et raison. Il existe des liens étroits entre le pragmatisme et des sciences dites normatives comme la logique, l'éthique et l'esthétique.

Mots clés: Pragmatisme, Pragmatiste, Validation, Intuition, Pensée, Raisonnement, Sémiotique, Signes, Recherche.

لقد كان على الفكر أن يعثر على صيغة جديدة للفكر تتسم بكونها لا توغل في التجريد ولا تبالغ في التنظير وتلتزم بانتقاء كل ما يمكن أن يكون مفيدا ونافعا وتبتعد عن كل ما يثير الغموض والإبهام.

تلك كانت النظرة التأملية التي تمخض عنها المبدأ العملي الذي وسمه تشارلز سندر بيرس (C.S.Peirce) بالذرائعية (Pragmaticism)، والذي فحواه أن العلوم مهما بلغت من الكمال فلن تكون أكثر من وسائل نافعة للأذهان البشرية أو مخططات تمكن من تمثيل الأشياء والإحاطة بمظاهر الكون، ذلك أن العقل والعلم ليسا إلا عنصرين من أدوات المعرفة البشرية التي تتيح توجيه تصرفات البشر في تحليل الظواهر واستخلاص ما اشترك فيها عبر منهجية علمية وعملية تمكنهم من تثبيت اعتقاداتهم.

1/ تثبيت الاعتقاد:

تتعامل الذرائعية كما يتصورها بيرس مع ظواهر مثل المكان والزمان والحركة بوصفها مجموعة من الصور الظاهرية وترجع كل إبهام إلى الماورائيات، ويحيل هذا التصور إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (E.Kant) الذي يشير إلى أن إدراك الماورائيات أمر مستحيل؛ فالفكر لا يستطيع بناء أي شيء ما لم يقف على بعض وجهات النظر ويفحص الأشياء من بعض الزوايا ويستخدم بعض المقولات. إن العقل على الرغم من كونه وسطا لا يمكن تجاوزه وحقيقة لا يمكن التملص منها إلا أنه لا يملك تلك القدرة على الإثبات الذاتي وتأكيد الصواب، وذلك ما دفع بيرس إلى التساؤل عن وجود وسيلة أخرى لمقاربة الصواب، علما أن الصواب كما يتصوره لا يتعلق بحدود العقل وحدها بل يتجاوزها إلى ضرورة تلاؤمه والواقع.

تساءل بيرس عن سبب انسجام الأشياء مع صورها الظاهرية، وحدا به ذلك إلى الاقتناع بحاجة البشر إلى الاعتقاد الذي يمثل في تصوره قواعد يتم الاحتكام إليها في توجيه السلوك، وبذلك ظهرت الذرائعية لتدعو إلى اللجوء للعقل ولما يستخدم من طرائق حتى يتم استخلاص النتائج التي تنطوي عليها المبادئ المسلم بها والتوفيق بين ما اختلف منها؛ ولكن العقل لا يمكن أن يقبل هذه المبادئ بوصفها بديهيات أو مسلمات كما لا يستطيع إثباتها بأي وسيلة، لذلك فإن مطالبته باصطفاء الحقيقة الأولى التي ينبغي أن تنتظم تبعاً لها معتقدات البشر ستكون إجراء تعسفياً.

تساءل بيرس عن السبيل الأمثل لتثبيت الاعتقاد في مقالته الموسومين ب: "كيف نهتدي لتوضيح أفكارنا" و"تثبيت الاعتقاد" [Peirce,CP(5.374, 5.388)]^أ، وطالب باللجوء للذرائعية كأفضل وسيلة لاصطفاء الفلسفة والتماس العقائد التي تسوغ

الحياة وتمنح معتقياً سلوكات خاصة ودوافع عمل، وتمدهم بالأمل والتأييد عبر الابتعاد عن الاهتمام بكل ما يحمل صفة الميتافيزيقي.

تعد الذرائعية في تصور بيرس مبدأ فكرياً رئيساً يختص بفحص الآثار العملية التي يمكن أن ينتجها موضوع لأن "تصور مجمل هذه الآثار العملية هو تصور كامل للموضوع" [Peirce,2002:265]، إنه بمعنى آخر وصف للإجراءات التي تسمح بتأسيس المعارف وتتيح مقارنة الإمساك بالمعنى عبر صوغ المفاهيم الدالة .

هذا يعني أن الذرائعية تلتبس معنيين أحدهما عام والآخر خاص ميز بينهما جوزيف شونو (J.Chenu) حين ذكر أنها "تختص في العموم بالجانب التطبيقي للنتائج أثناء البحث عن معنى فرضية أو فكرة معينة، أما في معناها الخاص فهي تُعنى بالآثار التطبيقية للمفاهيم العلمية، وهي آثار يمكن أن تتجلى في أي بحث تجريبي [Chenu, 1984:149]".

حاول شونو شرح وجهة نظره فيما يتعلق بتحديد المبدأ الذرائعي كما تصوره بيرس عبر تأويل جملة "هذا فحم"، وقد ذكر أنها تحتل معنيين أحدهما "إذا أردت أن تندفأ أشعل الفحم" والثاني "لو يتصل هذا الفحم بشرارة سيشتعل"، وفي كلتا الحالتين تكون دلالة الملفوظات خاضعة لكيفية استعمالها. [Chenu,1984:149] هذا معناه أن الملفوظات ترتبها بالسياق الذي تضمنها وترتبط بالطريقة التي تستعمل وفقها؛ لكن قد تبدو وجهة النظر هذه غير واضحة رغم محاولة تفسيرها حين يتبين أن الذرائعية ترتبط أيضاً بالمنطق في تصور بيرس؛ بل إنها تبدو "مبدأ منطقياً [Peirce, 2002:263] لأن كل نظرية معرفية بالنسبة له هي نمط سيميائي والسيميائيات ليست إلا صورة أخرى للمنطق .

بناء على ما سبق يتضح أن علاقة الفكر بالممارسة هي التي تختص بمهمة تحديد المبدأ الذرائعي وتفسير مفهوم الاعتقاد ابتغاء توضيح الأفكار [Peirce,CP(5.394)؛ لأننا إذا كنا نعتد كلياً على افتراض صواب الاعتقادات في تأسيس أفعالنا فإن الاعتقادات التي تتعلق بالموضوع يجب أن تتضمن كل ما يمكن أن يؤثر على نشاطاتنا في علاقتها بهذا الموضوع، وهذا يعني أن الاعتقادات في كليتها تمثل قاعدة لنشاط مستقبلي لا يكون محتملاً بالضرورة وإنما يكون قابلاً للإدراك من جهة وخاضعاً من جهة أخرى للعادة (Habit) التي تجيز التصرف حسب اختلاف الحالات.

طبق "بيرس" المبدأ الذرائعي على نظريته العامة للعلامات عبر ربطه العلوم المعيارية الثلاثة فيما بينها، وقد بلغ هذه النتيجة بعد دراسته لمسألة الاحتمالات (Probability) التي كان يرى فيها مدخلا للمنطق الذي يدرس طبيعة الاستنتاجات والتي أكد وفقها أن التبرير الوحيد على إمكان الإحاطة بالاستدلالات هو احتمال تقارب هذه الاستدلالات من الحقيقة على المدى البعيد (In the long run).

إن كل الاستدلالات محدودة حيال مقاربتها للحقيقة ما لم تتم إحالتها إلى عدد لانهائي من حالات ورودها؛ لكن إذا كانت الذرائعية تنحو لأن تكون طريقة لتوضيح الأفكار وتحقيقها أكثر من كونها فلسفة للفعل، فينبغي أن تمتلك آليات المنطقية تحقق ذلك خاصة إذا كان هذا المنطق "ليس إلا اسما آخر للسيمانيات " [Peirce,1978:56] وطبيعته لا تنفصل البتة عن العلاقات، كما أنه "يختص بتقفي الحقيقة والبحث عن المنهجية التي يتم بواسطتها سيرها " [Habermas,1976:127].

تناول بيرس البحث في مسألة الحقيقة إلا أن آراءه لم ترق إلى مستوى التناسق، فقد كانت "تأخذ شكل صياغة لولبية تتبلور من خلالها صور متعددة لنظرية متكاملة (...)"؛ فهي من وجه نظرية للحقيقة من حيث موافقتها للواقع (...); وهي من وجه آخر نظرية تهتم بالإيمان الحق كحل لمشكلة الشك عن طريق التحقيق "[بيتر كاز، 1983:127]، لكنه مع ذلك حاول جاهدا إيجاد صيغة تتيح توضيح الأفكار مع الحفاظ على البقاء في كنف الواقع لأنه لم يكن مقتنعا بالمبدأ الديكارتي القائم على الشك؛ فقد كان يرى فيه قصورا جليا لأنه كان يعتقد أن الحدس لا يمكن أن يكون معيارا للصدق كونه يتخذ الفرد معيارا للحقيقة، وذلك لا يكفي لتوضيح الأفكار بل يجب العثور على مبدأ آخر يتسم بدقة أكبر ويتوافق مع الواقع.

2/ الممارسة التداولية:

حمل بيرس لواء الدعوة المناهضة للحدس الديكارتي فجاءت سيميانياته بمثابة تحويل انعكاسي لفلسفة الإدراك الديكارتي إلى فلسفة للغة؛ إذ استهل مشروعه النظري بفحص فرضيتين هما "الإنسان العلامة" و"التفكير عبر العلامات" ليسوغ اعتقادا فحواه أن الفكر يتحدد بفعل العلامات وضمن إطار التجارب المتكررة، مما يبرر ورود تجربة التفكير عبر العلامات كشرط ضروري وكافي لكل نشاط فكري.

ينشأ الفكر في تصور بيرس وفق سيرورة من العلامات المتفاعلة التي تخضع لقواعد عامة للنشاط، وهذا يعني أنّ ثمة تأكيد على الخاصية المستمرة للمعرفة ورفض لكل إقرار بأسبقية الفكر على العلامات؛ فالمعرفة سيرورة مفتوحة لا يمكن أن تحدد إلا في علاقتها مع ما سبقها من المعارف، والفكر نسيج قوامه العلامات ومبدؤه عملي تداولي يتيح تحديد قيمة الصدق تبعاً لما يقتضيه الواقع من ضرورات. يعد التفكير عبر العلامات ضرباً من القياس العقلي ينطلق فيه المستعمل من بعض الحقائق التي افترض سلفاً أنها مسلمات تختص بقضية معينة، لينتهي إلى استنباط نتيجة مجردة تصور المحمول بعيداً عن الواقع، وهذا ما يثبت أن "القضايا تختص بإثبات صدقها الخاص" [Peirce,CP(5.340)] ، لكن هذا لا يعني أنّ السيميائيات كما يتصورها بيرس تطابق المنطق الصوري؛ بل ثمة فرق يتمثل في تجاوز السيميائيات لحدود المنطق التقليدي حتى ليكاد يكون فرعاً من فروعها؛ ففي المنطق الصوري تختص القضايا بالصدق بعيداً عما يفرزه الواقع.

تعد كل قضية في السيميائيات علامة تحيل إلى موضوعها دون عزله عن الواقع؛ لأنها تتفاعل معه وذلك يجعل صدقها مرتين بصدق تأويلها، وقد مثل بيرس على ذلك بالرسم التخطيطي الذي يؤسم أسفله بعنوان معين فذكر أنه "يمثل قضية لكن ما إن يراه مؤول معين حتى تنشأ في تصوره فكرة عن الموضوع الأصلي الذي يمثله الرسم .

لا تكون العلامة فاعلة (In actu) في سيرورة التأويل إلا إذا تم تأويلها وحددت علامة أخرى للموضوع لأن "الأحكام تصدق ما تصدقه العلامات الخارجية" [Peirce,CP(5.569)] ، وهذا ما يجعل من السيميائيات كما يتصورها بيرس نظرية للمعنى قوامها المبدأ التداولي الذي يثبت أن كل تفكير لا يتم إلا عبر العلامات التي تتيح بلوغ مرتبة توضيح الأفكار .

3/ الواقع والعلامات :

بناء على ما سبق يتبين أن وضوح الأفكار في تصور بيرس يتعلق بمحاولة تبيين علاقة العلامات بالواقع، وذلك ما جعل السيميائيات تركز على أسس نفسية غايتها إشباع الفكر واختزال الشعور بالنقص الذي يحفزه الشك فيبث في الإنسان نزوعاً نحو

بذل جهد غايته تثبيت الاعتقاد بفكرة معينة، وهذا الجهد ينعته بيرس بالبحث (Inquiry) [Peirce,CP(5.374)] ، والغاية منه هي تأسيس اعتقاد أو تبني سلوك يكون على قدر كبير من الملائمة للموضوع وفق "أنسب طريقة لتثبيت الاعتقادات وهي التشبث أو التحقيق (Method of Tenacity) [Peirce,CP(5.378)] .

لا يتيح تثبيت الاعتقاد مكنة بلوغ درجة اليقين المطلق كونه ليس إلا استقرارا مؤقتا للفكر يحيل إلى الشعور بالرضا إزاء الفكرة والافتناع بصدقها أو كذبها لفترة معينة من الزمن؛ لأن البشر لا يملكون القدرة على تجاوز حدود إمكاناتهم العقلية، ومجرد الوعي بالذات لا يمكن أن يؤدي إلى أي حقيقة لأنه لا يرتكز إلا على ذاته على خلاف التفكير وفق العلامات الذي يجعل الإنسان يواجه حقيقة قصوره عن معرفة ماهيته، ويتقبل أن إمكاناته العقلية محدودة وأن الوعي لا يمكن أن يتجرد من استعمال العلامات وأن الكوجيتو الديكارتي لا يمكن أن يؤدي إلى أي نتائج عملية.

إن ارتباط الفكر بالعلامات يكشف عن نتيجة فحواها القول بعدم وجود الاستبطان والحدس، ليحيل من جهة أخرى إلى القول باستحالة الارتقاء إلى التفكير فيما لا يمكن التفكير فيه من مواضيع تتعدى نطاق قدرة الفكر البشرية، وذلك ما يوجب إذعان البشر للتسليم باستحالة إدراكها والتولي نحو الموضوعات ذات الغايات الواقعية "فالشك التام لا يمكن اعتماده بوصفه نقطة بدء (...)"؛ لأن التخلص من الأحكام المسبقة غير ممكن، وهذا يعني أن الشك المبدئي الشامل ليس إلا وهما ذاتيا (A Self-Deception) لا يحيل إلى الواقع وبناء عليه فإن من يعتمد المبدأ الديكارتي سيشعر لا محالة بعدم الرضا كونه لن يحيط بتلك الاعتقادات التي أهملها" [Peirce, CP(5.265)].

هذا يعني أن الحكم المسبق الذي يوجه الفكر هو الحكم الواقعي الذي يتيح التفكير وفق العلامات لأن "صوغ قضية معينة في صورة استفهام لن يحفز الفكر على مجارة الاعتقاد؛ بل يجب العثور على شك واقعي وإلا فإن كل نقاش سيكون عديم الفائدة" [Peirce, CP(5.376)].

4/ نتيجة:

تمثل اللغة أحد أهم العوامل التي يشترك فيها البشر، وذلك ما جعل الفلاسفة واللغويين يحاولون تحليلها ابتغاء إبداع تصورات آلية عن الواقع عبر محاولتهم بلوغ مرتبة الفصل بين الأشياء والأحداث؛ لأن الشعور بأهمية العمل العقلي والعلمي يتيح مجازاة الواقع عبر محاولة رصد المعنى وتحري مظانه، لكن ليس عبر اعتماد الشك المنهجي الذي يُقضى بطريقة عكسية حالما يفتتح الإنسان باستحالة التفكير دون الاعتماد على منطق العلاقات الذي يتيح تحديد العلامات. لقد كان "بيرس" يؤمن بضرورة اقتراح منهج توليفي عماده المبدأ التداولي الذي ينهض على الجمع بين الاستدلال العقلي والإجراءات العلمية الافتراضية، ولعل ذلك ما جعله يدعو إلى "ضرورة اعتماد الباحث وضعية رجل العلوم الذي يتعامل مع الظواهر بوصفها شيئاً مُفكراً فيه في المخبر أو بوصفه مسألة تتعلق بالتجربة" [Peirce, CP(5.411)].

يرى "بيرس" أن الإنسان لا يمكن أن يكون على قدر كبير من العقلانية إلا إذا حاول مقارنة الواقع عبر وصف مطابق ولو نسبياً للظواهر الواقعية والإجراءات السيميائية، وهذه المطابقة لا تتم إلا إذا أسلم الفرد رغباته ونشاطاته واعتقاداته لقوانين استعمال العلامات التي تصفها السيميائيات؛ لكن مع ذلك يبقى الحرص من الانفتاح اللامحدود للمعنى أمراً لا مناص منه مخافة الانسياق وراء الأوهام المتعلقة بالقيمة الماورائية للعلامات اللغوية وغير اللغوية.

التعليقات:

¹. سنعمد في هذا المقال الإحالة إلى أعمال "بيرس" وفق الطريقة التي اعتمدها جامعة هارفارد الأمريكية لتصنيف أعماله المجمع، والتي اتفق معظم النقاد والمفكرين الذين تناولوا أعماله بالدراسة والنقد على اعتمادها في دراساتهم؛ حيث سنكتب كل الإحالات إلى أعماله المجمع كما في المثال التالي:

[Peirce, CP(5.376): يدرج اسم المؤلف بيرس باللغة الأجنبية، ثم CP التي تمثل الحروف الأولى لعبارة الأعمال المجمع (Collected Papers)، ثم رقم المجلد وهو في المثال الذي بين أيدينا 5، ويليه مباشرة رقم الفقرة وهو هنا في المثال 376.

¹. يبدو أن شرح "شونو" قد تضمن نوعاً من العموم؛ حيث جمع بين الذرائعية والتداوليات، فالمفهوم العام الذي أشار إليه يبدو أكثر شمولية ويتعلق بوضوح الأفكار لذلك فهو يحيل إلى

الذرائعية، أما المعنى الثاني الذي نعتة بالخاص فيشير إلى التداوليات في اللغة لأنه يختص باللغة من خلال تحديده الأثار العملية التي تنتجها المفاهيم.
¹. العلوم المعيارية هي المنطق والأخلاق والجمال، وقد ربط "بيرس" بينها لأنه كان يؤمن بوجود تطبيقها حسب ما تقتضيه منفعة الجماعة، وهنا يكمن الفرق بين الذرائعية والنفعية (utilitarisme) التي تحصر اهتمامها في المنفعة الفردية.

قائمة المراجع المترجمة:

- كاز بيتر (1983). تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 سنة، ترجمة. حسني نصار، مراجعة. مراد وهبة، القاهرة/ مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

قائمة المراجع الأجنبية:

- Peirce. Ch. S (1931-1935). The Collected Papers of Charles Sanders Peirce, Vols.1-6, Cambridge. MA. Harvard University Press: Hartshorne. Ch & Weiss. P.
 Volume 1. Principles of Philosophy.
 Volume 2. Elements of logic.
 Volume 3. Exact logic (Published Papers).
 Volume 4. The simplest mathematics.
 Volume 5. Pragmatisme and pragmaticisme.
 Volume 6. Scientific metaphysics.
- Peirce. Ch. S (2002). Pragmatisme et Pragmaticisme, Œuvres philosophiques, vol. I, tr. Tiercelin. Cl & Thibaud. P, Paris: Du Cerf.
- Chenu. J(1984), Textes Anticartésiens, Paris: Aubier Montaigne.
- Peirce. Ch. S(1978). Ecrits sur le Signe, tr. Deledalle. G, Paris: Du Seuil.
- Peirce. Ch. S., The Logic of 1873, VII. 321, in. Habermas. J (1976), Connaissance et intérêt, Paris: Gallimard.